وايراد تلخيص عفوي او مقصود في نهاية اغلب الفصول ، او التقاط كلمة من الكلمات والسير معها لتقصي معانيها في اللغات الاخرى ، او شرح سبب اتخاذه لفظة الجمع دون المفرد او المفرد دون الجمع . ومثل هذه الملاحظات هي من خصائص الهوامش لا المتن ، كما ارجح .

ويبدو ان الدكتور زريق استوحى دراسته هذه من الدراسات الحضارية المماثلة لها ، وليس من الحقل الاصيل الذي استوحت منه هذه الدراسات بناءها : هذا الحقل هو التاريخ ووقائعه وتطوراته. ومن هنا جاءت دون وجه واضح بارز خاص بها ، ولكنها على اية حال دراسة محايدة متزنة ، قد تثير الكتاب العرب الى الموضوع كما يرغب في ذلك المؤلف ، وان لم تثر القارىء وتضف معلومات خاصة الى معلوماته . وهي تحتفظ للدكتور زريق بمركزه بين المثقفين العرب الاول الذين يدركون اهمية عالمية الفكر وانسانية القضايا القومية وارتباط مصير الفرد بالمجتمع ومصير اي مجتمع بمصائر المجتمعات الاخرى . فتحيتي للدكتور زريق واكباري لجهوده .

ي. ح.

مُشكلة الحب

بقلم زكريا ابراهيم . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٣

الحب ، في اي بحث فلسفي ، هل يمكن ان يوضع في اطار تعريف ما ؟ هذا الذي به ، من اسطورة كلمة المعرفة التي رفت على شفة انسان ما ، قد خلق الكون، وبه يدخل الانسان ملكوت الله.

هذا الذي تمرد على العرق واللون والطبقة لكي يجعل المستحيل ممكناً فيلتقي الانسان بالانسان ، ويتغنى به بالحرف واللون ويجسده في عروق الحجر ويجعل منه ارفع قيمة .

كيف يمكن للحب الذي هو ابسط كلمة تخاطب بين البشر ان يصبح مشكلة الانسان ؟ هل لانه الكائن الوحيد الذي يرفض ان يكون ، كما هو في تعريف كامو ؟ هل هو مشكلة الانسان الحديث الذي بسبب من رفضه لصيرورته يرفض كل قيمة اخرى تبعاً لذلك ؟

ام ان المجتمع العلمي الحديث الذي فرض على الانسان ان يكون محللاً لكل قيمة، وبالتالي عقلنة كل شيء حتى عواطفه نفسها ، هو الذي جعل الحب مشكلة على الصعيد نفسه الذي ينظر الى وجوده كمشكلة كذلك ؟

وهل يمكن بالتالي ان يكون الحب هو خلاص الانسان الوحيد ؟ وهل يتحتم علينا عندئذ ان نمد الحب الى ابعاد تتخطى الجذب الغريزي بين ذكر وانثى وتتجاوز بذلك فلسفة فرويد القائمة على الجنس ، لكي يكون السقف الحقيقي لبيت العائلة الانسانية بأسرها ؟ وعندئذ نواجه الحب كمشكلة.

يعتقد اريك فروم ، عالم النفس الامريكي المعاصر ، ان الانسان الحديث يعاني مشكلة « الاقتلاع » التي انتهت به الى البؤس والتعاسة والتشرد داخل نفسه، وان الاسباب الرئيسية لهذا الواقع المدمر تكمن في انصراف الانسان عن الدين، وان الرد الوحيد على هذا التحدي هو الرجوع الى القيم الدينية لكي يتأتى للانسان خلاصه عن طريق الايمان .

ولهذا نجد اريك فروم ، في كتبه العديدة « تحليل الدين » و « الانسان من اجل نفسه » و « فن الحب »، يركز على القيم الروحية في الدين، حتى ان معظم الحالات التي يستشهد بها منتزعة من

التوراة . وهنا يلتقي فروم مع الشاعر الانكليزي اليوت الذي ذهب الى ابعد من ذلك بان لجأ الى استعارة القيم الروحية من حضارات مختلفة كانت تذهب في جذورها الى قيم منتزعة من واقع الحادي غير متعمد . الا ان دني ده روجمون يركز على القيم المسيحية لخلاص الانسان الحديث ، الخلاص الوحيد عن طريق الايمان كذلك ؛ ولعل منطلقه الرئيسي يبدأ من قول القديس اوغسطين : « احب ثم افعل ما تشاء » ، ولعل هذا هو منطلق هؤلاء جميعاً في ريادة اغوار النفس البشرية بالرغم من اختلاف المسالك التي تؤدي الى هدف واحد .

وكتاب الدكتور زكريا ابراهيم هو محاولة اخرى من هذا المنطلق ، الحب كقيمة ، لاعطاء الانسان المعاصر جذوراً جديدة هي : خلاصه الوحيد في العالم الخلاص عن طريق الايمان . ومن الصعب ان نجد رأي المؤلف الخاص ، على صورة اتم من الوضوح ، في كتابه هذا وهو اقرب الى الترجمة منه الى تفكير مستقل . ولهذا فقد وقع في تناقض في اكثر من موضع من الكتاب، فبينما نجد الكاتب يركز على حرية الانسان – الحب كصراع بين حريتين – نجده في الصفحة ٢٦٢ ينفي هذه الحرية ، لكي يدور في الحلقة القديمة التي تجعل الانسان مسيراً لا مخيراً . يقول الكاتب :

« والظاهر ان القانون الاسمى الذي يتحكم عادة في مصير البشر هو ان كلاً منا لا يظفر بالحياة الا بما هو اهل له ، وان الحدث الذي يقع لنا انما يوجهنا في الطريق الذي سبق لنا اختياره. فالرجل الذي يهوى تعذيب الآخرين كثيراً ما يقع في حب المرأة الضعيفة ، والنفس الطاهرة قلما تتعلق بنفس اخرى اكثر منها طهارة . ومعنى هذا ان كلا منا انما ينشد المخلوق الذي سوف يسمح له بان يكمل دورته الباطنية . وهذا هو السبب في ان الزواج قلما يكون بمثابة علاج للشخص المنحرف او المعوج، لان حبه لن يثبت الا حول شخصية اخرى منحرفة او معوجة مثله . وربما كان الحب اخطر حدث في حياة الانسان ، لانه يمس صميم شخصيته وجوهر وجوده الباطني ، في حين ان سائر احداث الحياة العادية ليست سوى ظواهر سلبية لا تكاد تقحم على حياتنا الباطنية اي عنصر من العناصر الفعالة المؤثرة » .

اما اذا اقحمنا في هذا السياق عمليات الجذب البشري على صعيد الحياة الواقعية فاننا نظفر بالعديد من الامثلة التي تتجاهل وتتجاوز معتقدات الانسان ووضعه الشخصي البحت .

ويذهب ده روجمون الى ابعد من ذلك في كتابه «اساطير الحب» ، عندما يقرر ان ظواهر الشذوذ كالماسوكية والسادية ليست سوى الحوافز الداخلية مصطدمة بعوائق اجتماعية معينة في حنينها الدائب الى منطلق يتجاوز النفس الطبيعية . فهناك صراع دائم حتى في اعماق الانحراف لقتل آدم القديم في اعماق آدم الحديث. فالانحراف ليس طبيعة نهائية، وانما الانحراف مرض ؛ ومن هنا يصبح في الامكان ان يتم خلاص الانسان بالآخرين. فالنفس الانسانية في تفتيشها الدائم عن الخير تلتقي في حالات لا تحصى بالمتناقضات العميقة ويتم تعايش بين المتناقضين.

ولكن ما هو الحب ؟ هل يمكن ان نصل الى تحديد معين لهذه التجربة الانسانية ؟ ثم هل الحب مشكلة ؟ وهل هو قيمة ؟ اسئلة كثيرة يمكن ان تطرح في هذا الصدد ، واسئلة كثيرة طرحت في كتاب « مشكلة الحب » . ويبدو اننا لا نستطيع ان نصل الى تحديد هذه التجربة الانسانية ، لاتساعها وعمقها وزئبقيتها . فالتعريفات التي اعطاها هذا الكتاب ابقت الحياة كتجربة انسانية بعيدة عن متناول اي تعريف . فهناك تعريف للحب بانه علاقة شخصية قوامها التبادل بين الأنا والأنت . وهذا التبادل يصطدم بحرية الانسان في اللحظة التي يتم فيها هذا التبادل . فالحب اذاً ليس عملية ابداع بمقدار ما هو تنازل عن الحرية للآخر. وعندما يكون الحب تجربة روحية فانه ينسف

المفهوم الفرويدي للحب . يقول الكاتب : « في وسعنا ان نقول انها تجربة روحية يدرك عن طريقها الانسان ما بينه وبين الآخرين من ترابط فيحاول ان يحقق خلاصه مع الآخرين وبالآخرين». وليس هذا المفهوم بمختلف عن مفهوم القديس اوغسطين : « احب ثم افعل ما تشاء » .

ومن كل ذلك ننتهي الى ان الحب يشبه قوس قزح : نخاله في متناول اليد ، فاذا ما حاولنا الوصول اليه والامساك به وجدناه قد اصبح خلفنا. فهل الحب شيء وهمي ؟ لعل افضل تعريف له جاء في هذا الكتاب انه تجربة انسانية متمردة على التعريف والتحديد . ولعل هذا هو السبب الذي لم يلجأ فيه الكاتب الى اي تعريف علمي . وكأنه يلتقي مع ذلك الصوفي الذي عندما سئل ما هو الحب اجاب اني عندما اعرف الحب ينتهي الحب وانتهي انا؛ اذ انه الشعور الوحيد الذي يمد جسراً من داخلي الى العالم ، وعن طريقه اعبر عوالم لا حدود لها .

ولما كان الكاتب يعرض الحب كمشكلة في النطاق الفلسفي ، فانه لم يتعرض من خلال عرضه لملاحم الحب عبر التاريخ الى التكوينات الاجتماعية التي كانت تقوم فيها علاقات انسانية معينة ، وربما ارتبطت العواطف فيها بصورة ذلك المجتمع وامكانياته على التفتح على اية تجربة انسانية وانعزلت بدورها عن ثقافة ذلك المجتمع ونظرة الفرد فيه الى الكون والحياة. ولا شك ان المجتمعات البدائية لا تجنح الى تعقيد العواطف الانسانية وتبقي اية تجربة انسانية فيها محدودة في نطاق بساطة ذلك المجتمع وبدائيته . وعندما شرع الانسان في البحث داخل نفسه عن مفهوم المنجزات العلمية الحديثة ، حاول ان يلجأ الى عقلنة اية تجربة انسانية . ولهذا اصبح الانسان في مفهوم حريته ، يرفض التنازل عن هذه الحرية في سبيل الحب . والتفكير البورجوازي هو الذي افترض ان الحب مشكلة صراع بين حريتين ، لان في ذلك تنازلاً عن مصالحه الخاصة ، عندما اصبحت فردية البورجوازي الطاغية هي المحور الاساسي الذي تدور حوله كل المفاهيم . ولهذا يقول ده روجمون في كتابه « اساطير الحب » ان تريستان يخسر الاسباب الانسانية للحب على حساب الحب نفسه ، ويظل يعاني آلام الوحدة والانعزال حتى حين يكون مستغرقاً في تجربته .

اننا نجد لدى زكريا ابراهيم نزوعاً مستديماً نحو شيء وهمي: هذا الشيء الوهمي هو الحب . بينما نجد لدى اريك فروم ان الحب هو احدى مشكلات العصر الرئيسية، وان الحب الحقيقي لديه هو قدرة الانسان على العطاء قلباً وجسداً وعقلا. واما لدى ده روجمون فهو القيمة الوحيدة في هذا العالم ، اذ يقول في الصفحة الاخيرة من كتابه : « ليس لدي اي ايمان اكيد آخر ، ولا امل آخر ، ولا ارى ان هناك اي معنى ما عدا الحب» . ولعل ما اوقع الكاتب في عدة تناقضات هو اتساع المفاهيم التي حاول ان يلجأ اليها لشرح فلسفات عديدة ومتناقضة تناولت هذه التجربة الانسانية .

والكتاب كما ارى ادق كتاب من نوعه في اللغة العربية . الا اني آخذ عليه اهمال التراث العربي في معرض الحديث عن قصص الحب في تراثنا . مثال ذلك انه لم يذكر « قيس وليلى » كملحمة الحب الخالدة في تاريخنا . على ان ذلك لا يقلل من قيمة الكتاب ، الذي يعذر له انصرافه الى المفاهيم والفلسفات الغربية .

محمد سعيد الجنيدي